

الأيدولوجيا وأزمة التنظير في العلوم الاجتماعية

Ideologies and the crisis of theorizing in the social sciences

شوقي مرابط *

جامعة الوادي (الجزائر)، chaoukimerabet@yahoo.com

تاريخ الاستقبال: 2022/02/16؛ تاريخ القبول: 2022/03/16؛ تاريخ النشر: 2022/04/16

ملخص:

ليست النظرية من كماليات البحث العلمي بقدر ما هي ضرورة للباحث الاجتماعي لذا فالدعوة الى التخلي عنها أو التقليل من شأنها وأهميتها يجب مواجهتها بالرفض التام حتى لا يحرم الباحث من الارضية الرئيسية لتأسيس علمه ، إذ أنه بدون نظرية تمثل رصيذا لأي علم فلا وجود لأي أساس للعلم ، ومن هذا المنطلق جاءت فكرة التنظير في ميدان العلوم الاجتماعية في العالم العربي والاسلامي ، وبما أن لمسألة الصياغة النظرية معايير وشروط علمية ومنهجية ، الا أن هناك اتجاهات قيمة وأفكار أيدولوجية يزعم المهتمين بهذا المجال أنها هي من تشكل الأزمة .

الكلمات المفتاحية : ، النظرية، النظرية الاجتماعية، الأيدولوجيا، البحث العلمي .

Abstract:

It is not a theory of Accessories scientific research as it is the need for social researcher therefore The call to abandon them or underestimated the importance that must be faced with utter rejection so as not to deprive the researcher of the main floor of the founding of his knowledge, since it without theory represents an asset to any knowledge there is no existence of any science-based, in this sense the idea of theorizing came in the field of social sciences in the Arab and Muslim world, and since the issue of drafting standards of scientific theory and methodology and terms, but there is an ad valorem trends and ideas ideology allegedly interested in this field it is the form of the crisis

Keywords theory ، scientific research‘ .

شهد العقدان الماضيان أو نحو ذلك تغيرات أساسية في مسألة التنظير في علم الاجتماع ، وفي العلوم الاجتماعية بصفة عامة ، ولم تناقش تلك التطورات الجديدة في الغالب إلا في المؤلفات الأكاديمية التي تتسم بقدر غير يسير من التعقيد ، فلم تتاح فرص الاطلاع عليها بسهولة لغير المتخصصين في علم الاجتماع ، ومن بين هذه التغيرات ما يناقشه علماء الاجتماع العرب حول صياغة نظرية عربية وإسلامية بإمكانها أن تفهم الواقع الاجتماعي العربي وتوجه الباحث نحو دراسة بعض المواضيع والمشكلات التي تتخطى فيها مجتمعاتنا

إلا أنه ما يحول دون ذلك ويقف عائق أمام تحقيق هذا المطلب بالنسبة للعلماء الاجتماعيين العرب هو مسألة العلمية وإمكانية قيام أو صياغة نظرية اجتماعية تقوم على الموضوعية المطلقة ، وعدم الانحياز والتحرر من إسار الأيدولوجية باعتبار أن التوجيهات الأيدولوجية أقرب الى التعبير عن التحيزات الشخصية والاتجاهات المذهبية والأحكام القيمية ، وهي كلها أمور تبعد بالعلم عن نطاق الموضوعية سواء من حيث الموضوعات التي يدرسها أو المناهج التي يستخدمها أو نماذج التحليل والتفسير التي يتبناها أو النتائج التي يتوصل إليها .

لكن المتبع للتنظير الاجتماعي عند علماء الاجتماع في الغرب يلاحظ أنهم هم أيضا عانوا من أزمة الأيدولوجيات المختلفة وكيف أثرت هذه المسألة على صياغة نظريات اجتماعية تفسر واقعهم الاجتماعي ، في خضم الحروب والثورات التي مرت بها بلادهم ، وضربوا في ذلك قضية الموضوعية ضرب الحائط واستطاعوا أن يبنوا نظريات توجه باحثهم في دراسة المشكلات الاجتماعية التي يعانون منها وتبنت هذه النظريات أفكار مختلفة (شيوعية ، رأسمالية) واستطاعت أن تتوصل الى نتائج مذهلة . وبناء على هذا نطرح الأسئلة الأتية:

- ما علاقة الأيدولوجيات بمضمون النظريات السوسيولوجية ؟
- هل يجب على الباحثين الاجتماعيين العرب أن يلتزموا بالتوجيهات الأيدولوجية في صياغة النظرية الاجتماعية ، أم أنهم يلتزموا في ذلك بالقيم العلمية والمنهجية فحسب ، وهل يمكن التوفيق بين هاذين المطلبين ؟

II - تعريف الأيدولوجيا :

يتفق عدد كبير من الباحثين في العلوم الانسانية والاجتماعية على أن مصطلح الأيدولوجيات لا يتجاوز في نشأته واستخدامه المائتي عام ، على اعتبار أنه ظهر لأول مرة في مؤلفات المفكر الفرنسي **انطوان دي ترسي (antoine destuttcde tracy)** في نهاية القرن الثامن عشر ، لكن على الرغم من ذلك شغل المصطلح اهتمام عدد كبير من الباحثين والمفكرين في مختلف مجالات العلم والفكر ، ونظرا لتشعب المفهوم وتعدد الجوانب في رؤيته وفهمه فإننا في هذا المقال سنكتفي بتعريف المصطلح فقط ، دون شرح أو تحليل السياق التاريخي أو الفلسفي الذي نشأ في ظله .

وحول تعريف هذا المصطلح "وبناء على العديد من الدراسات النظرية والواقعية في مجال الأيدولوجيا خاصة تلك التي قام بها **فرناند ديوموند** " يمكن القول بأن أغلب علماء الاجتماع المعاصرين يستخدمون هذا المصطلح للإشارة الى نسق الأفكار والأحكام الواضحة والمنظمة بوجه عام ، الذي يقوم بوصف وتفسير وتأويل وتبرير وضع الجماعة أو التجمع ، والذي تحدد استنادا الى قيم معينة اتجاهها محدد للعمل التاريخي للجماعة " (السماطوي ، 1975 ، ص212)

وتبعاً لذلك فإن الأيدولوجيا لا تعبر عن تبرير لرؤية شيء معين يحدث في الواقع فقط ، ولكنها أيضا تتضمن الأفكار والأحكام الواضحة والمنظمة بشكل عام ، وبهذا تقترب الأيدولوجيا من تحديد الموقف أو عرض أسلوب معين الذي يحاول من خلاله أعضاء جماعة معينة تفسير وضعهم القائم واضفاء معنى معين عليه .

وإذا ما حاولنا التعرف على مفهوم "ماركس" عن الايديولوجيا فإننا نجد يوسع من هذا المفهوم الى الدرجة التي يمكن معها أن يستغرق مفهوم الثقافة ذاته وللتدليل على هذا نجد أنه في كتابه المعنون ب " الايديولوجية الالمانية " يستخدم كلمة ايديولوجيا ليشير بها الى "القانون والسياسة والأفكار ووعي الناس بالأشياء وبمجتمعهم ، واللغة التي تتخلل كافة جوانب الانتاج الروحي والعقلي للفكر والسلوك " (السماطوي ، 1975 ، 212)

وتبعاً لذلك فان الايديولوجيا حسب "ماركس" مصطلح يعبر عن كل القواعد والأفكار التي لها علاقة بالقانون والسياسة ، وتتضمن أيضاً تصوراً لما هو مرغوب في وعي الناس خاصة الاشياء الاجتماعية وكذلك اللغة باعتبارها من الرموز التي تشترك في كافة أنماط التفاعل بما فيها جوانب الانتاج الروحي والعقلي للفكر والسلوك .

أما "كارل مائهايم" فيشير الى أن الايديولوجيا هي "تلك الأنظمة الفكرية التي تهدف بصورة رئيسية الى الدفاع عن تلك الأوضاع القائمة بالفعل والى إيجاد التبريرات اللازمة لحماية مصالح الفئات الحاكمة" (قباري ، 1979 ، ص22)

وبوجه عام يمكن القول بأن الايديولوجيا عند كارل مائهايم تعبر عن أفكار دفاعية اتجهت أوضاع معينة موجودة في الواقع ، وتتسم هذه الافكار بقدر من الاستمرار النسبي والتشبث بها لأنها تمثل موجهاً للأشخاص لتحقيق غايات معينة ، ومن بين هذه الغايات استمرار الوضع القائم لدى الفئات الحاكمة وذلك من خلال إيجاد التبريرات اللازمة لحماية مصالحهم .

ومن خلال الدراسات التي قام بها "عبد الله العروي" حول الايديولوجيات الرائجة في العالم العربي ، أمكنته أن يميز بين ثلاثة مواقف للكتاب العرب في التعامل مع هذا مفهوم الايديولوجيا ، فهناك من فهم الايديولوجيا بمعنى العقيدة أو الفلسفة أو الضمير ، في هذه المجموعة يفصل الكتاب بين عالمين عالم حق وعالم باطل وهنا من ينتفي ضمناً المجتمع والتاريخ والعلم الاكتسابي ، ثم المجموعة الثانية من الكتاب العرب ممن يضعون المطلق في المجتمع وفي التاريخ ويربطون الإدراك بالممارسة ، أما المجموعة الثالثة من الكتاب فيحاولون تأسيس اجتماعيات الثقافة العربية المعاصرة . (العروي ، 1993 ، ص127 ، 129 ، 128)

وحسب "قباري إسماعيل" فان الايديولوجيا هي "مقولة اجتماعية تعني محاولة ربط الفكر بالواقع ووصل العقل بالحياة ودمج المنطق بالوجود الاجتماعي للتوصل الى ما يسميه عالم الاجتماع الفرنسي المعاصر أندريه لاموش بسوسيولوجية العقل . (قباري ، 1975 ، 16 ، 15))

وعلى نحو آخر يشير قباري إسماعيل في كتابه علم الاجتماع والايديولوجيات " بأن كل عصر من عصور التاريخ ، إنما يخضع لأسلوب خاص من آداب السلوك ، أو لسيادة نمط معين من الفكر يتميز بوجود بعض التيارات أو الاتجاهات العلمية ، الأمر الذي يفسر لفاعله ما نشاهده في كل عصور التاريخ حيث تظهر نماذج معينة من الفن والأدب والفلسفة وتغلب على تلك النماذج بعض السمات أو الخصائص الكلية العامة التي تخلق معايير الفكر وتجسد اتجاهاته وتلك هي الايديولوجيا بمعناها الواسع

ومن خلال التعريفات السابقة وخاصة ما جاء به عبد الله العروي فان مفهوم الأيديولوجيا من وجهة نظرنا لا يختلف كثيراً عن تلك المفاهيم بل هو تلخيص لها بشكل أو بآخر " فالأيديولوجيا هي مجموعة من الأفكار والاتجاهات الواضحة المعالم ، تختلف من جماعة الى أخرى في المجتمع وتنشأ بناءً على تحقيق مصالح معينة "

III- الخصائص السوسولوجية للأيدولوجيات :

إذا ما حاولنا أن نوضح الخصائص الأساسية للأيدولوجيات من منظور علم الاجتماع والتي تجعل منها عاملا ديناميا قويا ، فإننا نستطيع أن نوجز هذه الخصائص فيما يلي :

1- العقلانية :

فالأيدولوجيا بحكم التعاريف السابقة هي نظام من الأفكار والأحكام المغلفة من جانب طبقة أو مهنة أو دولة .. وهي لهذا تحاول أن تلبس ثوب العقلانية أو المنطقية أو العلمية في بعض الأحيان ، وتحاول الأيدولوجيا باستمرار أن تقدم تفسيرا للواقع المعقد وغالبا ما يحاول أن يتخذ هذا التفسير طابع المنطقية والاتساق .

2- التنوعية :

فنظام الأفكار والأحكام يحاول مساعدة المؤمنين بما على فهم واقعهم وتفسيره بطريقة معينة فالأيدولوجيا تحاول أن توضح على سبيل المثال من الذي يشغل الفرد ولماذا ؟ كما توضح سبب تخلف المجتمع أو سبب تفوق الرجل الأبيض ، أو سبب حتمية قيام الثورة .

3- خدمة مصالح معينة :

فالأيدولوجيا ليست أمرا مجردا منفصلا عن الواقع ، لأنها تشير الى المصالح المباشرة للفرد وللجماعة ، فالأيدولوجيا توجه دائما الى جماعات المصلحة ، فقد توجه أيدولوجية معينة الى أولئك الذين يحاولون الاحتفاظ بمصالحهم القائمة لتبرير الوضع القائم ، وقد توجه أيدولوجية أخرى الى أولئك الراغبين في تغيير أوضاعهم سعيا وراء تحقيق مصالح خاصة .

4- استغلال الحالات السيكولوجية أولا أو الانفعالية القوية :

سواء الظاهرة منها أو الكامنة ، وترتبط هذه بالسابقة ، فالأيدولوجيا ترتبط بالمصالح الخاصة ، وبالتالي بجوانب ترتبط بسيكولوجية الفرد ، وعندما توجه الأيدولوجيا الى فرد أو جماعة معينة تحاول أن تشغل بعض المواقف النفسية المعينة لديه .

5- دفع الجماعة الى أسلوب معين للفعل :

فالأيدولوجيا تسعى الى اشباع المتطلبات السيكولوجية للجماعة ، وذلك من خلال اقتراح معين للسلوك من شأنه أن يخفف القلق الذي يعانوه من الاحباط والاتجاهات العدوانية القوية ، وبهذا يعني أن الأيدولوجيا توجه باستمرار الى جماعة لا الى الفرد وتحاول أن ترسم لأعضائها طريقة معينة في السلوك ، ويمكن لهذه الجماعة أن تكون طبقة معينة أو مهنة أو حزبا سياسيا أو أمة بأسرها (كالقومية) أو حركة اجتماعية ... إلخ وتحاول الأيدولوجيا تنمية الشعور بالقوة والفاعلية عند الفرد من خلال ربطه عضويا بجماعة أو بمجتمع معين يؤمن بنفس الأفكار والاحكام وأساليب العمل والأهداف . (السمالوطي ، 1975 ، 218)

6- الارتباط بالقيم والأهداف :

ترتبط الأيدولوجيا بمجموعة معينة من القيم أو الأهداف المرغوب تحقيقها وهذا الارتباط هو الذي يميز الأيدولوجيا عن العلم ، فالأيدولوجيا تتضمن أحكاما قيمية معينة ، فهي تحاول أن تقدم ليس تفسيرا للواقع فقط ولكن تقييما له وحكما عليه .



7- الطابع الطوعي للأيدولوجيا :

فمن شأن الأيدولوجيات أن تحاول اجتذاب الناس أو أعضاء جماعات معينة الى الايمان بما طوعا لا كرها ، وهي تفعل ذلك من خلال بيان الأهداف ووسائل تحقيقها وتقديم تفسيرات مغلقة بطابع عقلي أو منطقي للواقع ، وعرض حلول واقعية قابلة للتحقيق أو في صورة تجعل المستقبل يظن كذلك .

8- الأيدولوجيا كظاهرة نفسية اجتماعية :

يتضح من كل الخصائص السابقة بأن الأيدولوجيا ظاهرة سيكو اجتماعية فهي تمثنا في علم الاجتماع من حيث ما تقدمه من محاولات لتفسير الواقع أو تبريره وما تطرحه من أحكام ، وما تضمنه من قيم ورموز تدعمها ، فنحن يهمننا دراسة هذه المتغيرات من حيث تأثيرها في الجماعة التي توجه الأيدولوجية إليها ومن هذا المنظور تعد الأيدولوجيا إحدى مكونات الثقافة أو إحدى أعمدها الأساسية :

وهناك أيضا ارتباط قوي بين الأيدولوجيا وبين الظروف أو المواقف النفسية للجماعة خاصة مواقف القلق أو العدوان أو الشعور بالاستغلال أو الاحباط وتحاول الأيدولوجيا التخفيف من هذه الحالات من خلال مساعدة الفرد على التوحد مع جماعات المصلحة ومع المبادئ الأيدولوجية . (السماطوي ، 1979 ، ص 220)

IV- الإتجاه الأيدولوجي لرواد النظرية السوسيولوجية في الغرب :

تهدف معرفة الخلفية الفكرية والأيدولوجية لرواد علم الاجتماع الأوائل الى الكشف عن الإتجاهات الأساسية والرؤى الفلسفية والتاريخية في هذا التخصص ومدى مساهمتها في صياغة النظرية السوسيولوجية الغربية ، ومنه أردنا أن نكشف بعض الخطابات الأيدولوجية لأهم رواد علم الاجتماع أمثال أوجست كونت ، هربرت سبنسر ، إميل دوركايم ، ماكس فيبر ، باريتو ، بارسونز .

1 - الإتجاه الأيدولوجي للنظرية السوسيولوجية عند أوجست كونت :

يعتبر أوجست كونت رائدا من رواد علم الاجتماع والأب المؤسس لهذا العلم ، ففي القرن 19 ومع البدايات الأولى لنشأة علم الاجتماع كان كونت عالما فذاً ومفكراً قلقاً إزاء ما يحدث في المجتمع الفرنسي من صراعات ومشاكل ، تأثر أوجست كونت بمجموعة من الأفكار الأيدولوجية التي شكلت لديه إتجاها خاصا أنطلق منه في تحليل القضايا السائدة في مجتمعه ، سمي هذا الإتجاه بالاتجاه المحافظ نظرا لدعوته الى الحفاظ على الوضع الراهن ومنه سميت نظريته بالنظرية الوضعية باعتبار أنها تحاول تفسير الوضع الراهن ، كما تأثر كونت بخطابات " دي بونالد " و " جوزيف دي ماستر " وأستاذه " سان سيمون " وخلفت أفكار سيمون لديه أثرا عميقا وانطلق منها في تفسير المشاكل التي يمر بها المجتمع الفرنسي، واستعار منه بعض المبادئ الفكرية من اجل إعادة الاستقرار والتخلص من الفوضى القائمة في المجتمع الفرنسي ، حيث أرجع هذه الفوضى الى عوامل فكرية وقيمية وأخلاقية على أساس أن الأفكار هي القوى المحققة لوحدة المجتمع ، ومن هنا يمكن القول بأن علم الاجتماع ظهر عند رائده الأول ، خاصة علم الاجتماع الوضعي كرد فعل مضاد لفلسفة النفي التي ميزت عصر الاستنارة ، فاذا كانت هذه الفلسفة الأخيرة تستهدف وضع اساسيات تنظيم مستقبل مخطط ، فان الفكر الوضعي عند كونت استهدف الحفاظ على ما هو كائن ، وقد حاول من خلال فكرة الوضعية الاجتماعية الوقوف في وجه النظرية الماركسية التي كانت تمثل التحدي الأعظم للمجتمع البرجوازي الغربي ولالأيدولوجية البرجوازية القائمة على عدة مبادئ في مقدمتها الحقوق الطبيعية للإنسان وحرية المطلقة في التملك والعمل والفكر . (السماطوي ، 1979 ، ص 137، 138)

ويذهب بعض نقاد النظرية السوسيولوجية الى أن النظرية السوسيولوجية عند كونت ليست سوى تعبير عن الأيدولوجية الوضعية المنبثقة من واقع المجتمع الفرنسي بعد الثورة والتي تستهدف الوقوف أمام فلسفات عصر الاستنارة والفلسفات الثورية ، وذلك بهدف الحفظ على الأوضاع السياسية والاقتصادية السائدة في عصره . (السماطوي ، 1979 ، ص141)

2- الاتجاه الأيدولوجي للنظرية السوسيولوجية عند هربرت سبنسر :

يشكل هربرت سبنسر في التراث السوسيولوجي أحد الرواد البارزين والمفكرين المهتمين بالشؤون الاقتصادية والعوامل المساعدة على التطور والارتقاء الاجتماعي في المجتمعات الغربية ، وبفضل هذه الافكار تمكن من أن يكون أحد رواد النظرية السوسيولوجية ، وبما أن موضوع التطور والارتقاء مستعار من علم الأحياء ، فقد استخدمه في تفسير النظرية التطورية تفسيراً علمياً وطبقها على علم الاجتماع رغبة منه في تحويله الى علم شبيه بالعلوم الطبيعية (زربي ، 2013 ، ص86) ، وبما أن سبنسر من أبرز رواد النظرية الوظيفية فهو بذلك بناء أفكاره على مقارنة المماثلة العضوية ، ومنه شبه المجتمع بالكائن العضوي ، وتصور بأن المجتمع يقوم على ثلاثة عناصر رئيسية هي :

1- التصور الكلي للمجتمع ، بمعنى أنه يشكل عضواً متسانداً

2- يتمثل في علاقة الجزء بالكل وتساند أجزاء هذا الكيان على مستوى أول يتم بتساند هذا الكيان كجزء في كل أكبر وتراطبه بنائياً ووظيفياً .

3- يتمثل في التصور والانحلال الذي يخضع له النموذج المجتمعي وأسباب كل منهما (بوجلال ، 2015 ، ص106) ، وبهذا الطرح تشكلت أفكار سبنسر وتصوراته ، وتعمق في ذلك بمحاولته تطبيق قوانين البيولوجيا وقوانين التطور التي وضعها على المجتمع ، واقترح صبغة فريدة وهي التكامل والتمايز والتغاير مع تجنبه للفكرة الجبرية واعترف بفكرة التحليل عبر التشابه (المرجع السابق ، ص107) .

ويتضح الاتجاه الأيدولوجي أكثر عند سبنسر في عدة نقاط أهمها التركيز على أن مراحل التطور حتمية وأنها تعمل لغاية معينة ، وأن تدخل الانسان أو محاولاته للإصلاح الاجتماعي لن تجدي شيئاً أمام قانون

التطور الحتمي ، كذلك يتضح في نقطة أخرى تتعلق بالدور الوظيفي والاجتماعي للحكومة أو السلطة داخل المجتمع ، فمع أن النظرية العضوية تشير الى أن التطور يؤدي الى التعقد وتعدد المكونات أو الأجزاء إلا أنه عندما يتعرض لظاهرة الحكومة فإنه يرى عن ذلك حيث يشير الى أن وظائف الحكومة أو السلطة العليا في المجتمع تأخذ في النقصان والتقلص مع تطور المجتمع (السماطوي ، 1979 ، ص148)

وقد جانب سبنسر التوفيق عندما حاول الاعتماد على المماثلة بين المجتمع والكائن العضوي لدعم أفكاره ومعتقداته السياسية التي تتمثل في إيمانه بالمذهب الحر والحرية الاقتصادية فقد حاول ما استطاع الدعوة الى تقييد سلطة الدولة في المجتمع .

3- الاتجاه الأيدولوجي للنظرية السوسيولوجية عند إيميل دوركايم :

إيميل دوركايم زعيم المدرسة الفرنسية هو أحد الرواد المؤسسين لعلم الاجتماع ومن أنصار النظرية السوسيولوجية الوضعية المحافظة ، تشكلت أفكاره انطلاقاً من نقده اللادع للاشتراكية وما جاءت به خاصة في صيغتها الماركسية ، وزاد نقده حدة من خلال أفكار ماركس التي تنادي بالثورة والصراع كعوامل للتطور في المجتمعات ، وكذلك من خلال فكرة التقسيم الطبقي ، ومن خلال نقده لأعمال ماركس وفلسفته برز توجهه الأيدولوجي في أوائل أعماله العلمية الكبرى مثل دراسته في (تقسيم العمل الاجتماعي) حيث حاول المفكر تأثيراً بسيمون أن يثبت كيف أن ظاهرة تقسيم العمل ظاهرة نامية وحتمية داخل المجتمع الحديث وإنها تؤدي الى تحقيق شكلاً أعلى من التضامن الاجتماعي

وهو التضامن العضوي (المرجع السابق ،ص154) ، وأشار دوركايم من خلال هذا السياق الى أن المجتمع في حاجة الى بعض الاصلاحات حتى تسوده العدالة الاجتماعية ويستقر النوع الجديد من التضامن ، ولكن هذه الاصلاحات تنبثق من منطلقات ايديولوجية محافظة .

وقد ذهب بعض الدارسين للنظرية السوسيولوجية الى أن هناك أهدافا ايديولوجية خفية تقف وراء تحديد "دوركايم" للحقيقة الاجتماعية أو الظواهر الاجتماعية ووصفه لها بأنها كالأشياء وفي مقدمة هذه الأهداف محاولة الابقاء على الأوضاع الاجتماعية كما هي داخل المجتمع الفرنسي في مواجهة محاولات التغيير الثوري ، فالنظام الرأسمالي والأوضاع الطبقيّة والتنظيم الاقتصادي والسياسي القائم والفقراء والبطالة ... الخ كل هذه الظواهر تلقائية وخارجة وعمامة وجبرية ، ويقول آخر يذهب بعض الدارسين الى أن دوركايم بمهاجمته للفكر الاشتراكي وتحديد خصائص الظواهر الاجتماعية وإضفاء طابع الألوهية على المجتمع وتأكيد على فكرة الاصلاح التدريجي والنمو التلقائي للضمير الجمعي وقوله بحتمية تحقيق التكامل العضوي .. الخ استهدف القاء ارادة التغيير عند الانسان وتحويله الى مستقبل سلمي لظروف مجتمعه وكأنها قضاء الله وقدره ، والواقع أن نظرية " دوركايم " تحير الباحث المدقق لانطوائها على مجموعة متباينة من القضايا التي تحتاج الى المزيد من الدراسة والفحص.

4- الاتجاه الايديولوجي للنظرية السوسيولوجية عند "ماركس":

كارل ماركس الفيلسوف وعالم الاقتصاد ، والاجتماع الشهير ، جاءت حياته العلمية والاكاديمية لتعكس عموماً مجموعة الخطوط الفكرية والايديولوجية التي اصطبغت بها نظرياته وأفكاره ، ويرى الكثير من المحللين للنظرية السوسيولوجية التقليدية عامة ونظرية ماركس خاصة أن آراء ماركس لم تأت من فراغ بقدر ما تكشف طبيعة الظروف الاجتماعية والمعيشية له ولأسرته من ناحية والطبقات الفقيرة والفقراء من ناحية أخرى ، وهذا ما جعله يهتم عموماً بالثورة من أجل الفقر والفقراء وفي محاولته للقضاء على الملكية الخاصة وسياسات الاحتكار والاستغلال من جانب الطبقات الغنية الرأسمالية في نفس الوقت ، ولعبت الظروف السياسية الأوروبية عامة والألمانية بصفة خاصة دوراً أساسياً في توجيه افكار ماركس نحو كيفية تطور النظم السياسية والاقتصادية ومحاولته اصلاحها بأساليب ثورية ، وهذا ما جعله طريداً للسياسة الألمانية وخاصة الأوروبية عامة كما جاءت حياته العلمية والأكاديمية والمهنية المتنوعة لتعكس ايضاً كيفية إلمامه بالفلسفات المثالية والنقدية والاصلاحية والبرجوازية والاشتراكية . (عبد الله مُجَد ، 2006 ، ص384)

ويتضح الانحياز الايديولوجي أكثر بالنسبة للنظرية الماركسية في التركيز على المادية التاريخية والمنهج الجدلي والتفسير الاقتصادي ، والاعتماد على عامل واحد عند تفسير الطبقة والمجتمع والتاريخ والتغير وهو العامل الاقتصادي ، ويتضح للدارس لعلم الاجتماع الماركسي الطابع النمطي الجامد لنظريته ، وقد وجهت عدة انتقادات موضوعية لعلم الاجتماع الماركسي سواء من حيث التحليل أو التفسير أو من حيث التنبؤ بحركة التاريخ أو من حيث القول بوجود قانون التحولات التاريخية ، ولعل من أهم ما وجه الى ذلك العلم من نقد أنه لا يمثل في التحليل الاخير سوى ايديولوجية للصراع الأمر الذي يخرجه تماماً من مجال البحث العلمي الموضوعي ، والحق أن ذلك العلم يرتبط في شرق أوروبا والاتحاد السوفياتي بسياسة الدولة وبالنظام الحزبي ارتباطاً كلياً مما يسمح لنا بالقول بأنه هناك فرع من المعرفة يوظف لخدمة سياسة الحزب والدولة لا للكشف عن النظريات العلمية والواقع الموضوعي . (السماطوي ، 1979 ، ص148)

5- الاتجاه الأيدولوجي للنظرية السوسيولوجية عند "ماكس فيبر":

ماكس فيبر هو أحد أقطاب علم الاجتماع في ألمانيا ، انطلق في دراساته لعلم الاجتماع من منطلقات أيدولوجية واضحة لدرجة أنه يلقب بـ "ماركس البرجوازية" وقد اهتم فيبر بالمشكلات والقضايا التي طرحها "ماركس" وعلى الرغم من أنه كان متأثراً بالمدرسة التاريخية الألمانية التي كانت مهتمة بالفحص النقدي لتصورات وآراء هيغل وماركس فإن الطابع الأساسي لدراساته وتصوراته قد تكون خلال حوار مع ماركس (السماطوي ، 1979 ، ص 159)، ومن بين الاهداف الأيدولوجية لماكس فيبر هو ما جاء في دراسته عن المجتمع الرأسمالي حيث ارجع التطور الرأسمالي البرجوازي الى مقياس الضمير والاخلاق وأخص بذلك الاخلاق البروتستانتية (فيبر، ص 5)

ومن الواضح أن التحيز القومي كان أحد الأحكام القيمة التي وقع فيها ماكس فيبر وذلك من خلال تصوره بأن للعلوم الاجتماعية أهدافاً سياسية ، وفي مقدمة هذه العلوم علم الاجتماع ،وقد أثرت هذه العاطفة القومية العميقة عند فيبر على رؤيته للثقافات الأخرى كالثقافة البريطانية والأمريكية وشوهت تصوره الكثير من القضايا ، مثل قضية الاخلاق البروتستانتية كما ذكرنا ، زد الى ذلك فان النظرية الاجتماعية عند فيبر عكست واقع تجربته الشخصية داخل المجتمع الألماني ، حيث تأثر في دراسته للبيروقراطية بعدة عوامل في مقدمتها تجربته التاريخية والمدرسية وخبرته المباشرة بالبيروقراطية الألمانية خاصة البيروقراطية الحاكمة ، وفي موضع آخر يذكر الدارسين لنظرية ماكس فيبر وافكاره أنه وصل به الجنون الى الترحيب بالحرب العالمية الأولى ، وأعتبر أن هذه الحرب عمل عظيم ورائع بل أنه دافع عن حق ألمانيا في احتلال واشغال بعض المناطق ، وقد كان الاهتمام الاساسي عند فيبر مركزاً على البحث عن كيفية خلق قيادات ألمانية خلاقة في كافة المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية ، وهكذا كان فيبر يؤمن بحكم الصنفوة على حساب المبادئ الديمقراطية ، وقد عبر عن ذلك الايمان في بعض فقراته العلمية (السماطوي ، 1979 ، ص 166)

6- الاتجاه الأيدولوجي للنظرية السوسيولوجية عند "الفريديو باريتو":

يذهب " زاييلين" الى أن النظرية السوسيولوجية عند "باريتو" هي في جوهرها محاولة طموحة لهدم وتفنيدي مبادئ عصر التنوير سواء في شكلها الذي ظهرت به خلال القرن الثامن عشر أو في صورة المبادئ الثورية لدى بعض المفكرين في القرن التاسع عشر ، ويقول آخر فان أعماله العلمية الكبرى كانت تستهدف هدم النظرية الديمقراطية من ناحية والاشتراكية الماركسية من ناحية أخرى على التوالي

وعن اتجاهه الأيدولوجي فقد اتضح في أكثر من موضع خاصة في دفاعه عن الافكار الفاشية الإيطالية ، وقد رأى بأن الفاشية الإيطالية نظاماً يتفق مع نظريته من ناحية وممهداً لمرحلة مقبلة من ناحية أخرى ، وقد جاء تأييده لذلك النظام من أنه عين في 23 مارس 1923 عضواً في البرلمان ، ويبدو أن هذا التوحد بالفاشية من قبيل باريتو جاء كنتيجة لاعتقاده بأن السابق للنظام الفاشي لم يستطع تحقيق النظام للمجتمع الإيطالي اعتماداً على الأساليب القانونية وهو لهذا السبب يرى أن البديل الوحيد هو استخدام القوة والقهر في سبيل تحقيق الاستقرار السياسي والاجتماعي لاطاليا .

وهكذا يتضح كيف تأثر باريتو عالم الاجتماع الإيطالي بمجموعة من العوامل وهو يصوغ نظريته السوسيولوجية : في مقمة ذلك تجربته الشخصية والظروف السياسية في مجتمعه وتطلعاته السياسية والعلمية والتراث الفكري السابق ، وقد أدت به هذه العوامل مجتمعة الى اخراج نظرية فكرية لا تتفق على الاطلاق مع المنطقية التجريبية التي دافع عنها لأنها أبعد ما تكون عن روح العلم ومنهجها الى درجة أن بعض النقاد يرون أن نظرية باريتو لا تنتمي الى علم الاجتماع ولا الى المنطق ولكنها تنتمي الى الفكر السياسي الفلسفي الذاتي (السماطوي ، 1979 ، ص 177)

IV- اتجاهات الباحثين في علم الاجتماع في العالم الإسلامي:

يتفق علما الاجتماع المعاصرون على أن علم الاجتماع في العالم الاسلامي يسير بخطى ثابتة نحو علم الاجتماع الغربي ، ويعتبر هذا الوضع أمراً طبيعياً في مناخ تسوده التبعية المطلقة للغرب ، اذ جعلت هذه التبعية الدول الاسلامية تستورد كل شيء ضروري لوجودها بما في ذلك أفكارها عن نفسها ، وقد بدأت خيوط التبعية تتشابك في القرنين الأخيرين حيث يمكن تحديد فترة الالتقاء بين الثقافة الاسلامية والثقافة الغربية في العصر الحديث ، بحوادث احتلال الانجليز للهند ، وفرنسا لمصر ، ثم لشمال إفريقيا .. ولأوائل اتصال الدولة العثمانية بالغرب عن طريق التمثيل السياسي ، والصلات التجارية ، والبعثات العلمية .

وعلى ضوء هذه العوامل ، أثبتت في العالم الاسلامي الكثير من المشكلات ، دار حولها نقاش حاد ، تعتبر في صميمها من مواضيع علم الاجتماع ، على الرغم من أنها لم تستخدم المفاهيم والمصطلحات الخاصة بعلم الاجتماع فالكتابات التي كتبها قاسم أمين ، وأحمد فتحي زغلول ، وبطرس البستاني ، وأمين الريحاني ، في مصر والشام وأمثال الطاهر الحداد في تونس ، كانت تتناول مواضيع اجتماعية وتعتبر في مجملها مقارنة بين الأوضاع الأوروبية والأوضاع في العالم الاسلامي ، كما أنها تحمل دعوة لتبني الأوضاع الأوروبية ، وتدور أهم الكتابات حول قضايا ثلاث رئيسية يمكن تلخيصها فيما يلي

1- الدعوة الى الحرية الشخصية والحياة النيابية ، كما عرفتها الدول الأوروبية وكان القصد منها المطالبة بحرية الفرد في أن يفعل ما يشاء ، وفي أن يعبر عن رأيه وينشره كيفما أراد ، وكان دعاة هذه الحرية متأثرين بالثورة الفرنسية على وجه الخصوص حيث نادى هذه الثورة بالحرية والاخاء والمساواة .

2- الدعوة الى فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية ، وبمعنى آخر فصل الدين عن الحياة وشؤونها ، على غرار ما حدث في أوروبا عندما تخلص المفكرون من سلطة الكنيسة .

3- الدعوة الى تحرير المرأة من العادات والتقاليد التي تحد من حريتها وعلى رأسها الحجاب وكذلك تعدد الزوجات إضافة الى مسألة الطلاق وانتقال المرأة بالشؤون العامة .

ويلاحظ في هذه الفترة أن الدراسات التي تسير بخطى حثيثة لتبني وجهة الغرب الليبرالي في المسائل الاجتماعية السابقة .

وقد اعتبرت الكتابات في تلك الفترة بمثابة إشارات وعلامات سبقت ظهور علم الاجتماع ، كعلم مستقل في العالم الاسلامي وقد أظهرت كما سبق قدراً كبيراً من التبعية للغرب الليبرالي بالذات (المطيري، 1992، ص75-76)

وعلى ضوء هذه الاتجاهات يقول "مُجد قطب" بأن الظروف التي مرت بها أوروبا وأنتجت الانفصام بين العلم والدين هي ظروف خاصة بأوروبا وحدها ، وليست ظروفًا عالمية ، والمعايير التي أنشأتها تلك الظروف هي كذلك معايير محلية خاصة ليس لها صفة العموم ، ولا صفة اللزوم ، ليست معايير انسانية كما يحلو لأوروبا أن تتصورها ، بدافع الغرور الذي أنشأ النجاح الحاضر للغرب ، الذي جعله يتوهم أن الغرب هو العالم وأن معاييرها يجب أن تخضع لها البشرية كافة وأن من اختلف عنها فهو المخطئ الذي ينبغي أن يعدل موقفه وينقاد الى المعيار الصحيح .

أما نحن فنقول إن الظروف التي مر بها الغرب وأنشأت له معاييرها الخاصة ليست هي ظروفنا التي عشناها في ظل الاسلام ، سواء في فترة ازدهار الاسلام ، وازدهار الحضارة الاسلامية والحركة العلمية الاسلامية ، أو في ضل الانحسار الذي طرأ على العالم الاسلامي حتى

أوصل الأمة الى حضيضها الذي وصلت إليه ، فصارت كما أخبر الرسول (ص) (غناء كغناء السيل) ، أو في ظل الصحوة الاسلامية المباركة التي تبشر بالخير رغم تكالب العالم كله على محاولة القضاء عليها ، وفي جميع هذه الأحوال الثلاثة كانت ظروفنا مختلفة عن ظروف الغرب ، فلا عجب أن تكون معاييرنا مختلفة عن معايير الغرب وأن يكون تناولنا للعلوم الاجتماعية وغيرها كذلك مختلفاً عن تناول الغربي في أسسه وقواعده ، وإن التقى معه في بعض الجزئيات ، أو حتى في كثير من الجزئيات التي تتخذ صورة أبحاث معملية وتجريبية ، ذلك أن الخلاف الجوهرى ليس في اجراء تلك التجارب المعملية ورصد نتائجها إنما هو في تفسير الظواهر الاجتماعية ، وتأصيلها المستمد أساساً من تصورنا للكيان الانساني ولغاية الوجود الانساني وهنا يقع الخلاف ، وهنا يكمن الدافع الى ضرورة التأصيل الاسلامي للعلوم الاجتماعية (قطب، 1998، ص7)

IV- الصياغة الإسلامية للنظرية السوسولوجية (الدواعي الموضوعية والإمكان الأيدولوجي):

إن ما يميز الدراسات السوسولوجية في المرحلة السابقة في العالم العربي والاسلامي هي أنها ذات اعتماد مطلق على النظريات الاجتماعية الغربية في التفسير والتحليل ، وأن الباحثين العرب استعملوا أفكار غيرهم من الشعوب ومناهج من سبقهم في صياغة هذا العلم ونظرياته ، استعملوها كأدوات لدراسة وتحليل ظواهر تختلف بيئتها الاجتماعية وتركيبية الافراد المتسبين في حدوثها وأفكارهم عن المجتمعات الغربية ، وبعد مرور مدة كبيرة من استخدامها ثبت عقم هذه الادوات والمناهج ، لأنها لم تصل الى حلول مقنعة ونتائج واقعية مرضية تتطابق مع الواقع الاجتماعي العربي ، ولعل أن هذه النتائج هي المعيار الأساسي الذي ثبت من خلاله قيمة النظريات الغربية وقوميتها ، ومن هنا جاءت فكرة اعادة النظر في تطبيق هذه النظريات والعمل من أجل صياغة نظامية وعلمية للنظرية السوسولوجية العربية والاسلامية ، جاءت كأفكار ناقدة للنظرية الغربية وفي نفس الوقت مفسرة لظواهر ومشكلات الواقع الاجتماعي العربي ، الى هذا الحد تبدو الأهداف واضحة والنوايا حسنة ، لكن الخطر المزعّم حدوثه هو وقوع الباحثين العرب في نفس الأخطاء التي وقع فيها الباحثين وعلماء الاجتماع الغربيين في صياغتهم النظرية ، ويكمن هذا الخطر في الالتزام بالتوجهات الايدولوجية ، بل الانغماس والدوبان فيها الى حد الابتعاد عن العلمية والموضوعية .

ومن خلال الطرح السابق نتساءل هل يستطيع علماء الاجتماع العرب فعلا التخلي عن التوجهات القيمية والأيدولوجية ، ويلتزموا في ذلك بالقيم العلمية والمنهجية فحسب ، والاجابة على هذا السؤال ستكون عبارة عن رؤية لما ينبغي أن يكون انطلاقا مما هو كائن ، ومنه يمكن القول أن الأزمة الحقيقية المتسببة في تأخر صياغة النظرية الاجتماعية العربية مردها الى الخوف من الانحياز للتوجهات القيمية والايدولوجية ، فالمطلع على النظريات الغربية في ميدان العلوم الاجتماعية يرى بأن أصحابها انغمسوا في القضايا القيمية والايدولوجية الى حد الغلو وحققوا بذلك نتائج باهرة ، أما المطلع على حال الباحثين العرب يرى أنهم ابتعدوا عن الأفكار القيمية والتوجهات الايدولوجية ولم يحققوا من موضوعيتهم المزعومة أي نتائج تذكر ،

لذلك ما علينا إلا مراجعة التراث العربي والاسلامي في مجال الفكر الاجتماعي وبناء النظرية الاجتماعية ، لأن ذلك الفكر يمدنا بالأصالة والعمق ، ويمكن أن يمدنا بالعديد من الحلول لمشكلاتنا الراهنة ، وهذا ايضا لا يمنع من الانفتاح الفكري على التراث العملي في هذا المجال ، وللملتزمين بالعلمية والموضوعية نقول بأن المعتقدات والخلفيات الثقافية لا يمكن اسكاتها أثناء البحث فهي تظهر بوضوح عند التحليل والتفسير ، بل حتى عند اختيار ظاهرة معينة للبحث دون غيرها ، أو حتى في صياغة الاسم لنظرية اجتماعية معينة .

– الخلاصة:

وكخلاصة لما سبق يمكن القول بأن أزمة التنظير في العلوم الاجتماعية في العالم العربي والاسلامي تعود للالتزام المفرط بالقضايا الموضوعية والأفكار الواضحة والمحققة في الواقع العلمي من أجل بناء النظرية الاجتماعية ، متجاهلين في ذلك التوجهات القيمية والأفكار الايديولوجية ، والمتأمل في الدراسات الاجتماعية يرى بأن أغلب علماء الاجتماع يصدرن في دراساتهم عن نماذج تحولت لديهم الى توجهات ايديولوجية ملزمة ، والواقع أنه بدون تفهم مثل هذه النماذج ، فإنه يصعب فهم الخلفية النظرية الموجهة للدراسة .

– الإحالات والمراجع:

- نبيل مجّد، توفيق السمالوطي، (1955). الأيديولوجيا وأزمة علم الاجتماع المعاصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ، مصر .
- اسماعيل، قباري، (1979). علم الاجتماع والأيديولوجيا ، المكتب العربي الحديث ، الاسكندرية ، مصر .
- عبد الله، العروي، (1993). مفهوم الايديولوجيا ، ط5، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، لبنان .
- نذير، زريبير (2013)، الوجيز في علم الاجتماع (نظريات اجتماعية) ، منشورات ليجوند ، الجزائر .
- مصطفى، بوجلال (2015)، علم الاجتماع المعاصر بين الاتجاهات والنظريات ، ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون ، الجزائر .
- عبد الله مجّد، عبد الرحمان (2006)، النظرية في علم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية ، الأزرنطية ، مصر .
- ماكس ، فيبر، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ، ترجمة مجّد علي مقلد ، مركز الانماء القومي ، بيروت ، لبنان .
- منصور زويدن، المطيري (1992)، الصياغة الاسلامية لعلم الاجتماع الدواعي والامكان ، كتاب الأمة ، الدوحة ، قطر .
- مجّد، قطب (1998)، حول التأصيل الاسلامي للعلوم الاجتماعية ، دار الشروق الأولى ، مدينة النصر ، مصر .